

الكمان.. صهيل الأوتار الجامحة وحنين الأخشاب المعتقة

آلة تبكي مشاعر عازفيها وتورخ لملاحم الشعوب عبر التاريخ



آلة الأحاسيس المتجاورة والمتنافرة والمتضاربة



أمير الكمان سامي الشوا

قالها محمود درويش في أشهر قصائده:

"الكَمَنَجاتُ تَبْكي مَعَ العَجْرِ الذَّاهِبِينَ
إلى الأندلس
الكَمَنَجاتُ تَبْكي على العَرَبِ
الخارجين من الأندلس
الكَمَنَجاتُ تَبْكي على رَمَنٍ ضائع لا
يَعوَدُ
الكَمَنَجاتُ تَبْكي على وَطَنٍ ضائع
قَد يَعوَدُ
الكَمَنَجاتُ تُحرقُ غاباتِ ذاك الظلامِ
البعيد البعيد
الكَمَنَجاتُ تَدْمِي المَدَى، وتَشْمُ دَمِي
في الوَريدِ
الكَمَنَجاتُ تَبْكي مَعَ العَجْرِ الذَّاهِبِينَ
إلى الأندلس
الكَمَنَجاتُ تَبْكي على العَرَبِ
الخارجين من الأندلس
الكَمَنَجاتُ خُيِّلَ على وَتَرٍ من سرابٍ
وماءٍ يَبْتَنُ
الكَمَنَجاتُ حَقَلُ مِنَ اللَّيْلِكَ المَتَوَجِّشِ
يَبْأَى وَيَبْدُو
الكَمَنَجاتُ وَحَشٌ يُعَدِّبُهُ ظَفَرُ امْرَأَةٍ
مَسَّه، وأَبْتَعَدُ
الكَمَنَجاتُ جِيَّشٌ يُعَمِّرُ مَقَبْرَةَ مَنْ
رُحِمَ وَمَنْ نَهَوَّئِدُ
الكَمَنَجاتُ فَوْضَى قُلُوبٍ تَجَنَّبُها
الرَّبِيعُ في قَدَمِ الرِّاقِصَةِ
الكَمَنَجاتُ أُسْرِبُ طَيْرٌ تَعْرِى مِنَ الرِّايَةِ
النَّاقِصَةِ
الكَمَنَجاتُ شَكْوَى الحَرِيرِ المُجَدِّدِ في
لَبَّيَّةِ العاشِقَةِ
الكَمَنَجاتُ صَوْتُ النَّبِيدِ البَعِيدِ على
رَغْبَةٍ سابقَةٍ."

عشرة عام 1947، وقد عزف منفردا على آلة الكمنجة ليالٍ إعجاب جمهور الحاضرين. كان القلعي متميزا فريدا في عزفه وقادرا على التعبير بالآلة، ومنذ ذلك الحين فتح باب النجاح أمامه على مصراعيه، وبانخراطه في الوسط المحترف، بدأت طريق الشهرة والنجاح تتشكل معالمها أمامه. عمل العازف الشاب - آنذاك - مع ثلة من كبار الموسيقيين في تونس على غرار "التركيبي" و "خميس الترسان" بفرقة الراهب، ومع الهادي الجويني وغيره في فرقة المغنية الشهيرة فتحية خيري (1918 - 1986).

آلة ترقد على أسرار عجيبة وغريبة بالإضافة إلى كونها وعلى عكس البيانو تزداد رقة وحنينا كلما أوغلت في القدم

كنت شخصا قد كتبت سيناريو لفيلم روائي طويل مستوحى من حياة أحد المهووسين بالآلة الكمان، ويدعى "الجرانة" وتعني في مرجعيتها الإيطالية "الضفدع" كناية على الكمان في شكله الأصلي. وكان البطل لا يملك من الآلة سوى القوس الذي يظل يعزف به في الفراغ ضمن إيماءات تبدو مضحكة لكل من يعرفه في حانة المدينة، لكنها تخفي الغارزا تتكشف تدريجيا مع الأحداث وما يقف خلفها من أسرار أسرة إلى درجة الألم الإنساني. الكمان ليس مجرد آلة موسيقية تترجم مشاعر من يحملها بين الخد والتكف... إنها نرف جرح لا يندمل وأسطورة يرويهها خشب الصنوبر المعتق وأوتار مجدولة من شعر الخيول الجامحة.

الذي عاصر شوبان، وملاً الدنيا وشغل الناس بفضل براعته المدهشة في العزف وكذلك العبقري يوهان سباستيان باخ، والموهوب أندري ريو، عازف الكمان الهولندي الذي حقق شهرة كبيرة بسبب إطلاقه لأسطوانة "رقصة الفالس الثانية"، التي لاقت استحساناً كبيراً من الجمهور في جميع أنحاء العالم، وغيرهم من العازفين العبقرة الذين ما زالت معزوفاتهم تتردد حتى يومنا هذا.

قَدِّر للكمان أن يحاط بهالة من الأسطورة في التاريخ الحديث والقديم، فارتبطت هذه الآلة بملاحم إنسانية خالدة كحادثة غرق السفينة البريطانية "تايتنك" في بدايات القرن الماضي. وكان يعتقد أن الكمان الخاص بقائد الفرقة والاس هارلي، فقد في الكارثة التي وقعت عام 1912 لكن دار مزادات هنري دريدج أند سون، قالت إن الآلة تم العثور عليها عام 2006 وخضعت لاختبارات مكثفة أثبتت أنها أصلية.

قصة كمان

وقال أندرو دريدج من دار المزادات "كانت عملية فحص طويلة، العثور على الكمان أمر يكاد لا يصدق عقل". وأضحت دار المزادات سبع سنوات، كما أنفقت الآلاف من الجنيهات لتحديد أصل الكمان، إذ استشارت عددا من الخبراء من بينهم علماء شرعيون من الحكومة ومن جامعة أوكسفورد. وظهرت اختبارات مصلحة الطب الشرعي البريطانية علامات تآكل اعتبرت "متوافقة مع الغمر في مياه البحر"، بينما فحص خبير اللوحة على عنق الكمان ليقرب ما إذا كانت توافق عمر كمان هارلي.

وقالت الدار إن الآلة ذات الخشب الوردي بها شقان طويلان في هيكلها، لكنها "في حالة جيدة بشكل لا يصدق" رغم عمرها الطويل وتعرضها لمياه البحر، وعند عرضها للبيع وصل المبلغ خلال المزاد إلى 1.7 مليون دولار. وكانت العديد من القصص تناولت قصة الكمان، وأوضحت إحداها أنه عثر على جثمان هارلي بكامل ثيابه مع آله مشدودة إلى جسمه.

لا تزال تروى حقائق أشبه بالأساطير حول سحر هذه الآلة، فلقد عزفت مريضة بمستشفى كينزن كوليغ في لندن على آلة الكمان خلال خضوعها لعملية جراحية لإزالة ورم من دماغها. وتم تشخيص الورم في الدماغ للعازفة المحترفة داغمار تيرنر، البالغة من العمر 53 عاماً في العام 2013 بعد تعرضها لنوبة أثناء أداء سيمفونية.

وتم اتخاذ قرار إزالة الورم بعد استقرار نموه على الرغم من العلاج الكيميائي الذي بات يهدد منطقة الدماغ التي تتحكم في حركات يدها اليسرى الدقيقة. وبعد بدء العملية الجراحية تحت التخدير العام، استيقظت تيرنر لعزف بعض الألحان على الكمان بينما قام الجراحون بإزالة الورم، مما ساعدهم على تجنب إتلاف مناطق دماغها التي تم تنشيطها أثناء العزف.

لا يمكن لك أن تتخيل عجزيا دون كمان كما لا يمكن لك أن تتخيل كمانا دون روح وثابة وراقصة دون عجز وقمر وسهر. السؤال الأقرب إلى القول بمدى أسبقية البيضة عن الدجاجة أو العكس، يتلخص في سؤال شبيه ومستنسخ: من هو الأقدم، العجزي أم الكمان؟

لم يفارق الكمان موسيقى الشعوب القلقة والباحة عن الاستقرار أو حتى تلك التي تحثني بسكينتها واستقرارها عند مواطن الماء والكلأ وما تيسر لها من الحب. وبقي يستخدم في عزف الأغاني التقليدية في الموسيقى الأيرلندية، والمجرية ثم استمر استخدامه في عزف الموسيقى الريفيّة الغربية، والبلوز، والجاز منذ ظهورها الأول.

قامت العديد من المدارس بتعليم العزف على هذه الآلة، فأول مدرسة كانت للإيطالي جيمينياني، إذ كان أول من كتب كتابا يعلم العزف على الكمان، ولا ننسى المدرسة الفرنسية - البلجيكية التي كان تضم أشهر العازفين مثل روبيه، وبايو، ومن ثم جاءت المدرسة الروسية التي كانت على مستوى عالٍ بالنسبة للمدارس السابقة، التي لم تستطع منافستها حتى اليوم.

وكان من الطبيعي أن يكون لهذه الآلة صيت عالٍ من الانتشار، على مستوى الصناعة التنافسية مثل الصين التي احتلت المركز الأول في تصنيع هذه الآلة وتصديرها فقد قامت بصنع 300000 آلة كمان في عام 2009، وتم تصديرها إلى أمريكا وأوروبا، وذلك لما يتميز به الكمان الصيني من ثمن زهيد يتمكن من اقتنائه المبتدئون، على الرغم من وجود كمنجات صينية جيدة المستوى والصناعة في مدينة شنغهاي، الأمر الذي أثر سلبا على صناعات عرفت بسمعتها العالمية كالنموذج الياباني ونظيره الألماني.

الكمان آلة لها أسبادهام ومروضوها عبر التاريخ فلا يمكن الحديث عن هذه الآلة الشيطانية دون التطرق إلى الإيطالي نيكولو باغينيني (1782 - 1840)

ليس هناك في تاريخ البشرية - قديمها وحديثها - من آلة موسيقية أحيطت بهالة أسطورية وصلت حد حافتي اللعنة والتقدیس، مثل آلة الكمان.. إنها عزف السماء، حنجرة الأقدار وقد تمثلها قوس "يذبح" وترا فوق كتف عازف يحمل الكون وهو الرأس والأذن والأصابع.. والألم يحني.

تزداد رقة وحنينا كلما أوغلت في القدم.

يتم تصنيع آلة الكمان من خشب الصنوبر، ويتم دهن الآلة بطبقات عدة من طلاء مخصص لها وهو ما يؤثر تأثيراً هاماً على نوعية الصوت.

تميّزت في صناعة الكمان منطقة كريمونا الإيطالية معقل صناعة الآلات الموسيقية، وكانت غرينيري من أهم الأسر التي اشتهرت بصناعة هذه الآلات، خصوصاً في القرن السابع عشر. إنما الأشهر بين هذه العائلات هي أسرة ستراديغاري، التي بفضلها بلغت صناعة الكمان أوج الكمال في أوائل القرن الثامن عشر.

والى الآن لم يستطع صانعو الآلات بلوغ ما بلغته هذه الأسرة من جودة تصنيع الكمان، خصوصاً في ما يتعلق بالطلاء الذي يغطي الآلة والذي لم يتمكن أحد حتى الآن من معرفة تركيبته. والجدير بالذكر أن آلات ستراديغاري المتبقية حتى اليوم، تعرض في أعظم المتاحف وتباع القليلة منها بالمزادات بملايين الدولارات.

ويقول خبراء صناعة الكمان بأن عملية دوزان الأوتار يتطلب مهارة في حد ذاتها.. وبمجرد حصولك على الوتر تصل إلى درجة النسبية، ستحتاج لتثبيت الوتر في لوحة المفاتيح لضمان عدم رخاوته وضباب الدرجة. ويضيف أحد العرفين بالمهنة "بعد الاقتراب من درجة الصوت الصحيحة، ستحتاج بعدها إلى تحريك ما يسمى منقي الصوت للحصول على الدرجة الصحيحة والسليمة.. ولتوزيعها بشكل متساو تحتاج لفعل ذلك على الأوتار في منطقة الرقبة.. وتطبق هذه العملية على جميع الأوتار."



حكيم مرزوقي كاتب تونسي

لكن تمنيت أن أسحر نفسي والأصدقاء والنساء عبر هذه الآلة الشيطانية، لكني وصلت متأخراً، وقال لي عتاة العازفين إن أصابعك قد تخشبت فاكثف بالكتابة والسماع والتذوق.

هذه الآلة المتكونة في صيغتها الحالية من أربعة أوتار ويتم العزف عليها بواسطة قوس مشدود الأوتار، ومصنوع من شعر حصان، تختلف عن مشتقاتها كبيرة الأحجام مثل التشيلو، والقوبولنسيل، والكوتريافس في كونها ترقد بمنتهى الحميمية بالقرب من خد صاحبها، وتتجاوب مع أدق وضعيات أصابعه إلى درجة مذهلة.. يكفي أن تغير مليمتراً واحداً من المسافة فوق الأوتار حتى تمنحك نغماً مختلفاً يصل حد التناقض والتضاد.

أخت الربابة

إنها آلة الأحاسيس المتجاورة والمتنافرة والمتضاربة، وقد تحاورت فيها أربعة أصابع مع أربعة أوتار وقوس واحد.. ألا يكفي هذا كي تلقب بالآلة الساحرة؟



الكمان آلة لها أسبادهام ومروضوها عبر التاريخ فلا يمكن الحديث عن هذه الآلة الشيطانية دون التطرق إلى الإيطالي نيكولو باغينيني

من الأقدم؟

لا يمكن لك أن تتخيل عجزيا دون كمان كما لا يمكن لك أن تتخيل كمانا دون روح وثابة وراقصة دون عجز وقمر وسهر. السؤال الأقرب إلى القول بمدى أسبقية البيضة عن الدجاجة أو العكس، يتلخص في سؤال شبيه ومستنسخ: من هو الأقدم، العجزي أم الكمان؟

لم يفارق الكمان موسيقى الشعوب القلقة والباحة عن الاستقرار أو حتى تلك التي تحثني بسكينتها واستقرارها عند مواطن الماء والكلأ وما تيسر لها من الحب. وبقي يستخدم في عزف الأغاني التقليدية في الموسيقى الأيرلندية، والمجرية ثم استمر استخدامه في عزف الموسيقى الريفيّة الغربية، والبلوز، والجاز منذ ظهورها الأول.

قامت العديد من المدارس بتعليم العزف على هذه الآلة، فأول مدرسة كانت للإيطالي جيمينياني، إذ كان أول من كتب كتابا يعلم العزف على الكمان، ولا ننسى المدرسة الفرنسية - البلجيكية التي كان تضم أشهر العازفين مثل روبيه، وبايو، ومن ثم جاءت المدرسة الروسية التي كانت على مستوى عالٍ بالنسبة للمدارس السابقة، التي لم تستطع منافستها حتى اليوم.

وكان من الطبيعي أن يكون لهذه الآلة صيت عالٍ من الانتشار، على مستوى الصناعة التنافسية مثل الصين التي احتلت المركز الأول في تصنيع هذه الآلة وتصديرها فقد قامت بصنع 300000 آلة كمان في عام 2009، وتم تصديرها إلى أمريكا وأوروبا، وذلك لما يتميز به الكمان الصيني من ثمن زهيد يتمكن من اقتنائه المبتدئون، على الرغم من وجود كمنجات صينية جيدة المستوى والصناعة في مدينة شنغهاي، الأمر الذي أثر سلبا على صناعات عرفت بسمعتها العالمية كالنموذج الياباني ونظيره الألماني.

الكمان آلة لها أسبادهام ومروضوها عبر التاريخ فلا يمكن الحديث عن هذه الآلة الشيطانية دون التطرق إلى الإيطالي نيكولو باغينيني (1782 - 1840)



شهدت عائلة الكمان العديد من التغييرات قبل أن تصل إلى شكلها الحالي الذي نعرفه. وفي أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر طرأ الكثير من التغييرات على هذه الآلة، فقاموا بتطوير لمعدب الأضلاع، وقاموا بتعديل العديد من أطرافها لتدعم الأوتار التي زاد عددها، لإصدار الصوت بشكل أجمل ومتقن أكثر. ومثل كل إنجاز بشري فائق الإدهاش والمهارة، وجاذب للمزيد من الإعجاب والمعجبين من عازفين ومستمعين، فإن الكمان قد خضع للكثير من التطويرات مع الحرص في الحفاظ على روحه وصوته وهيكله الذي لا تضاهيه آلة أخرى في الجمال والرشاقة.

يكفي أن الكمان هو الآلة الموسيقية الوحيدة التي تتكون من أكثر من سبعين قطعة. تركب بصبر ودقة وأناة على أيادي أمير الصناعين الذين يتوارثون صناعتها جيلا بعد جيل، ويحتفظون بسر المهنة في تواتر يبلغ حد الإدهاش. الكمان بصيغته المذكر، والكمنجة بصيغته المؤنث، كما يجلو لأصقاني العازفين من الشغوفين تسميتها، آلة ترقد على أسرار عجيبة وغريبة، وذلك بدءاً من طبيعة خشب نادر من الصنوبر المعتق، ووصولاً إلى صنف الأوتار التي تشد إليها، بالإضافة إلى كونها - وعلى عكس البيانو -